﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ[1] قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾

جاء هذا القول فى صُلْب قصة نوح - عليه السلام - وقد يكون مما أوحى به الله سبحانه لنوح عليه السلام ، أو يكون المراد به أنهم قالوا لرسول الله ﷺ مثل هذا الكلام.

والافتراء - كما نعلم - هو الكذب المتعمَّد الذى يناقض واقعاً.

وانظروا إلى كل ما جاء بالمنهج ليلتزم به الفرد ، ستجدون أنه مُلْزِمٌ للجميع ، وستكون الفائدة التى تعود عليك بالتزام الجميع - بما فيهم أنت - فائدة كبيرة ، فإن قال لك المنهج : لا تسرقْ ؛ فهذا أمانٌ لك من أن يسرقك الناس .

ولذلك فساعة تسمع للمنهج ، لا تنظرْ إلى المأخوذ منك ، بل التفتْ إلى المأخوذ لك.

وعلى ذلك لا يمكن أن يكون المنهج افتراء.

ونحن نعلم أن المنهج يؤسِّس فى المجتمعات مقاييس عادلة للاستقامة ، وحين يُشَرِّع الحق سبحانه تشريعاً ، قد يبدو لك أنه يُحدُّ من حريتك ، ولكنه فى الواقع يُحقِّق لك منافع متعدِّدة ، ويحميكَ من أن يعتدى الآخرون عليك.

---

(١) افترى القول : اختلقه واخترعه . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ .. (٣٥) ﴾ [هود] أى : يقولون : اخترع القرآن واختلقه من عند نفسه . وقال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ .. (١٣) ﴾ [هود] أى : مكذوبات - كما تدَّعون . [القاموس القويم].

وكان الردُّ على الاتهام بالافتراء يتمثَّل فى أمرين : إما أن يفتروا مثله ، أو أن يتحمَّل هو وِزْرُ إجرام الافتراء .

وإن لم يكن قد افتراه ، فعليهم يقع وِزْرُ إجرامهم [1] باتِّهامه أنه قد افترى .

وأسلوب الآية الكريمة يحذف عنهم البراءة فى الشطر الأول منها ، ولو جاء بالقول دون احتباك ، لقال سبحانه : قل إن افتريته فعليَّ إجرامى وأنتم برءاء منه ، وإنْ لم أفْتَرِ فعليكم إجرامكم وأنا برىء .

وجاء الحذف من شقٍّ المقابل من شِقٍّ آخر ، وهذا ما يسمَّى فى اللغة «الاحتباك» [2] .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ..(٢٤٩) ﴾ [البقرة]

والفئة القليلة تكون قلَّتُها فى الأفراد والعَتَاد وكلٍّ لوازم الحرب ، والفئة الكثيرة ، تظهر كثرتها فى العُدَّة والعَدَد وكلٍّ لوازم الحرب ، والفئة القليلة إنما تَغْلب بإذن الله تعالى .

وهكذا يوضِّح الحق سبحانه أن الأسباب تقضى بغلبة الفئة الكثيرة ، لكن مشيئته سبحانه تغلب الأسباب وتصل إلى ما شاءه الله تعالى .

---

(١) آثام الذنوب فيما افتروه .

(٢) الاحتباك : من أساليب البلاغة العربية ، وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره فى الثانى ، ومن الثانى أن يحذف نظيره فى الأول كقوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ ..(١٢) ﴾ [النمل] . والتقدير : تدخل غير بيضاء ، وأخرجها تخرج بيضاء ، فحذف من الأول «غير بيضاء» ومن الثانى «وأخرجها» . وقال الزركشى : هو أن يجتمع فى الكلام متقابلان ، فيحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه ، كقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾ [هود] . والتقدير : «إن افتريته فعلى إجرامى وأنتم برءاء منه ، وعليكم إجرامكم وأنا برىء مما تجرمون» [الإتقان فى علوم القرآن : ٣/ ١٨٢ ، ١٨٣] .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى :

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ .. ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران]

وحذف سبحانه صفة الإيمان عن الفئة الأولى ، كما حذف عن الفئة الثانية صفة أنها تقاتل فى سبيل الطاغوت [1] والشيطان ، وهذا يسمَّى «الاحتباك» .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها قال الحق سبحانه :

﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [هود]

ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء أن يبين لنا قول رسول الله محمد ﷺ حين خاطب قومه ، فقال سبحانه :

﴿.. قُلْ لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سبأ]

فلم يَقُلْ : « عَمَّا تُجرمون» . فلم يقابل إيذاءهم القوليَّ والمادِّيَّ له بإيذاء قوليٍّ .

وكذلك ذكر الحق سبحانه ما جاء على لسان محمد ﷺ :

﴿.. وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ]

وهذا ارتقاء فى الجدل يناسب رحمة رسول الله ﷺ التى أنزلها الله على العالم كله .

---

(١) الطاغوت : مصدر يدل على المبالغة ، ويسمى به الشيطان ، الصنم ، وكل ما عبد من دون الله ، وكل ما يغرى بالشر والداعى للضلال والفتنة .

وبعد ألف عام إلا خمسين من جدال نوح عليه السلام لقومه ، قال له الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ[1] فَلَا تَبْتَئِسْ[2] بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

ومجىء «إلا» هنا ليس للاستثناء ، ولكنها اسم بمعنى «غير» أى : لن يؤمن من قومك غير الذى آمن .

ولهذا نظير فى قمة العقائد حين قال الحق سبحانه :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء]

و«إلا» هنا أيضاً بمعنى «غير» ، ولو كانت «إلا» بمعنى الاستثناء لعنى ذلك أن الله سبحانه - معاذ الله - سيكون ضمن آلهة آخرين ، لذلك لا يصلح هنا أن تكون «إلا» للاستثناء ، بل هى بمعنى «غير» ، وتفيد معنى الوحدانية لله عَزَّ وجَلَّ وتَفرُّده بالألوهية .

والآية التى نتناولها بخواطرنا تؤكد أنه لا يوجد غير من آمن بنوح - عليه السلام - من قومه ، سوف يؤمن ؛ فقد ختم الله المسألة .

وهذا يعطينا تبريراً لاجتراء نوح - عليه السلام - على الدعاء على الذين لم يؤمنوا من قومه بقوله :

---

(١) عن ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم . وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفساً . وقيل : كانوا عشرة ، وقيل : إنما كان نوح وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث ، وكنائنه الأربع ، نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام . انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٥) .

(٢) ابتأس الرجل : اكتأب وحزن . ولا تبتئس : لا تحزن . يقال : ابتأس الرجل إذا بلغه شىء يكرهه . والابتئاس : الحزن فى استكانة . [لسان العرب - مادة : بأس]

﴿ .. رَّبِّ لا تَذَرْ (١) عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢) (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) ﴾ [نوح]

وكان تبرير ذلك أنه عليه السلام قد دعاهم إلى الإيمان زماناً طويلاً فلم يستجيبوا ، وأوحى له الله تعالى أنهم لن يؤمنوا . وقال له سبحانه :

﴿ .. فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [هود]

والابتئاس هو الحزن المحبط ، وهم قد كفروا وليس بعد الكفر ذنب .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَاصْنَعِ (٣) الْفُلْكَ (٤) بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) ﴾

---

(١) يذره : يتركه ويدعه . وهذا الفعل لم يستعمل منه فى القرآن الكريم إلا المضارع والأمر ، فمن المضارع قوله تعالى : ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ .. (١٢٧) ﴾ [الأعراف] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ .. (٢٣) ﴾ [نوح] أى : لا تتركن آلهتكم . ومن الأمر قوله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) ﴾ [المدثر] أى : اتركنى أنتقم منه وأعاقبه على جرائمه ضد الدين والقرآن ، وهو أسلوب تهديد ووعيد . [القاموس القويم] .

(٢) الديَّـار : من يسكن الدار ، أو من يتحرك فيها ويدور فيها بحرية ، ويقال : ما بالدار ديَّار ، أى : ما فيها أحد . وقوله تعالى على لسان نوح عليه السلام : ﴿ .. رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) ﴾ [نوح] . أى : لا تترك أحداً منهم حياً . [القاموس القويم] بتصرف .

(٣) الصنع : معناه الإحداث والإنشاء ، ويكون بقصد وإرادة وتدبير ، ولذلك لا يقال : صنع الخبز ، كذا . وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ .. (٦٩) ﴾ [طه] أى : أن الذى صنعوه وأحدثوه كيد وسحر . وقال تعالى فى قصة موسى عليه السلام : ﴿ .. وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه] أى : تُربَّى محروساً بعنايتى . وقوله تعالى : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا .. (٣٧) ﴾ [هود] أى : تحت عنايتنا ورعايتنا . [القاموس القويم] بتصرف .

(٤) الفُلْك : السفينة للمذكر والمؤنث ، وللواحد والجمع . يقول الحق : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ .. (١٤) ﴾ [النحل] والفلك : المدار تسبح فيه النجوم السماوية ، يقول الحق : ﴿ .. كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [الأنبياء] (القاموس القويم - باختصار)

وهكذا علم نوح بمسألة الإغراق من خلال الوحى له بصنع السفينة. ومعنى «اصنع» أى: اعمل الصنعة، وهناك فرق بين الصنعة والحرفة، فالصنعة أنْ تُوجدَ معدوماً، كصانع الأكواب، أو صانع الأحذية، أو صانع النَّجَفَ، أو صانع الكراسى، أما الذى يقوم على صيانة الصنعة فهو الحرفىُّ.

وهناك عملية أخرى للاستنباطات مثل مهنة الزارع الذى يحرث الأرض ويبذر فيها الحَبَّ ويرويها ليستنبط منها النباتات، ويسمَّى صاحب هذه المهنة «زارع» أو «فلاَّح»؛ لأن اقتيات الحياة المباشر يأتى من الزراعة.

أما الصانع فيأتى بشىء من متطلبات الحياة، فى تطورها ويوجد آلةً أو يصنع جهازاً لم يكن موجوداً، والحرفىُّ هو الذى يصون تلك الآلة، أما التاجر فهو الذى يقوم بعملية تجمع كل ذلك، ويكون هو الوسيلة بين منتج الشىء والمستهلك، فالتاجر يكون لعرض الأشياء بغية البيع والشراء.

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا لنوح عليه السلام:

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ .. (٣٧)﴾ [هود]

أى: أوجد شيئاً من عدم، إلا أن هذا الشىء سيصنع من شىء آخر موجود، لأن نوحاً عليه السلام قد زرع من قبل شجرة وعاشت معه كل هذه المدة الطويلة، وتضخَّمت فى الجذع والفروع.

وبدأ نوح عليه السلام فى عملية شقِّ الشجرة ليصنع منها السفينة التى بلغ طولها - كما قيل [1] - ثلاثمائة ذراع [2] وبلغ عرضها خمسين ذراعاً، وبلغ

(١) ذكره قتادة. وفيها أقوال أخرى. واجتمع الرأى على أن ارتفاعها فى السماء كان ثلاثين ذراعاً، ثلاث طبقات، كل طبقة عشرة أذرع، فالسفلى للدواب والوحوش، والوسطى للإنس، والعليا للطيور. وكان بابها فى عرضها، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها. انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٤).

(٢) الذراع: مقياس للأطوال يقدر بـ ٧٥ سنتيمتراً أو أقل. والذراع من الإنسان: من المرفق إلى أطراف الأصابع.

ارتفاعها ثلاثين ذراعاً ومكوَّنة من ثلاثة أدوار لتسع المؤمنين ، وزوجين من كل نوع من حيوانات الأرض ودوابِّها وهوامها وسباعها ووحوشها .

ونحن قد علمنا أن الشجرة التى زرعها نوح عليه السلام قد تضخَّمت جدًا لطول المدَّة التى قضاها نوح فى دعوته لقومه ؛ ونعلم أيضاً أن جذع الشجرة ينمو دائريًا بمقدار دائرة كل عام . وحين نقطع جذع الشجرة نجد أن قطر الجذع مكوَّن من دوائر ، وكل دائرة تمثِّل عاماً من عمرها .

وهكذا بلغ حجم الشجرة ما يساعد نوحاً عليه السلام على أن يصنع السفينة .

وقد علَّمه الحق سبحانه بالوحى وإلهام الخواطر كيف يصنع السفينة ، ألمْ يُلهم الله سبحانه نبيَّه داود عليه السلام فى مسألة الحديد ؟ وقال لنا سبحانه أنه - جلَّ وعَلا - قد أمر الجبال أن تُؤَوِّب [(1)] معه ، وكذلك الطير ، فألان له الحديد [(2)] دون نار :

﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ..(١١)﴾ [سبأ]

هكذا أخبرنا الحق سبحانه أن الحديد صار ليِّناً دون نار - بإذنه سبحانه - ليصنع منه داود دروعاً كبيرة مستوفية للظهر والصدر ، لتحمى معاطب [(3)] الإنسان .

(١) تؤوب : تسبِّح معه وترجِّع التسبيح . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٢٧) : «التأويب فى اللغة هو الترجيع فأمرت الجبال والطير أن ترجِّع معه بأصواتها» .

(٢) قال الحسن البصرى وقتادة والأعمش وغيرهم : كان داود لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة ، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٢٧) .

(٣) المعاطب : المهالك . واحدها معطب . والعطب : الهلاك يكون فى الناس وغيرهم . عطب (بكسر الطاء) عطباً وأعطبه : أهلكه . [اللسان : مادة (ع ط ب)] والمراد : الأماكن التى إذا طعن فيها المقاتل قد تؤدى إلى هلاكه .

وقد أوحى الحق سبحانه لداود عليه السلام أن يصنع تلك الدروع بطريقة عجيبة ، بأن يجعلها سابغات [١] .

والسابغة هي المسرودة ، مثل الحصير ، حيث يُوضع العُود بجانب العود ، ويربط الأعواد كلها بطريقة تسهل من فَرْد الحصير أو لَفِّه .

وفي نفس الآية يبيِّن لنا الحق سبحانه كيفية الوحي لداود عليه السلام بتلك الصناعة الدقيقة ، فيقول سبحانه :

﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ [٢] .. (١١) ﴾ [سبأ]

أي : أنك يا داود حين تنسج [٣] الحديد الليِّن - بإذن الله تعالى - لتجعله دروعاً عليك أن تصنع تلك الدروع بتقدير دقيق كي لا تكون الدِّرع ضيِّقة على صدر المقاتل فتضيق حركته ، وتقلِّل من قدرته على التنفس ، فيلهث بسرعة ، ولا يستطيع مواصلة القتال .

وكذلك يجب ألاَّ تكون الدِّرع واسعة على صدر المقاتل ؛ حتى لا تساعد سعة الدِّرع سيف الخصم ، فيضرب الدِّرع نفسه صدر المقاتل ، وتكون قوة الدِّرع مضافة إلى قوة سيف الخصم ، ولكن حين تكون الدِّرع قادرة على الإحاطة بالجسم دون أن يُكبِّل الحركة ، فهذه هي الدِّرع المناسبة للقتال .

---

(١) الدرع السابغة : الواسعة التي تطول إلى الأرض فتغطي الكعبين . [اللسان - مادة : سبغ] .

(٢) السَّرْد : نَسْج حلقات الدرع وإحكام صنعها . وسَرَدَ الأديم والجلد يسرده سرداً : خرزه وثقبه بالمخرز في تتابع واتساق ؛ ولهذا سمى نسج الدروع سرداً ؛ لما فيه من دقة وتتابع واتساق . وقدِّر في السرد : أي : أحكم العمل في سرد الدروع ، أي : في أثناء نسجها . أي : أحكم السرد ، وأتقن النسج . [القاموس القويم] .

(٣) النسج : ضم الشيء إلى الشيء . ونسج الشيء ينهجه نسجاً فانتسج ، ونسجت الريح التراب : سحبت بعضه إلى بعض . والريح تنسج الماء : إذا ضربت متنه فانتسجت له طرائق كالحُبُك . ونسجت الريح الورق الهشيم : جمعت بعضه إلى بعض . ومن معاني النسج : حياكة الثوب . وربما سمى الدرَّاع (صانع الدروع) نَسَّاجاً . [اللسان : مادة (ن س ج) بتصرف] .

وقد أتقن داود عليه السلام صناعة تلك الدُّروع بتلك الهندسة الدقيقة التى أوحى الحق سبحانه بها إليه ، فقد صنعها بأمر الحق الأعلى سبحانه حين قال له : ﴿ وَقَدِّرْ ..﴿١١﴾ ﴾ وكلمة قدر تعطى معنى التقدير والإتقان .

فعلى الذين يصنعون الأشياء عليهم أن يعلموا أن القرآن الكريم لحظة يوجِّه إلى الإتقان فى الأداء والعمل ، فإنه يعلمنا طريقة التقدير والإتقان فى العمل والإبداع فيه ، لنتخذ من هذا التوجيه نبراساً[1] نسير عليه ؛ ليكون العمل صالحاً ، وأنت ترى من يتقن صنعته وهو يقول : «الله» ، وكأن هذا القول اعتراف الفطرة الأولى بقدرة الحق سبحانه على أن يَهَبَ الإنسانَ طاقة الإتقان والإبداع .

ويقول الحق سبحانه أيضاً فى تعليمه لداود عليه السلام :

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ[2] .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنبياء]

وهكذا يلقى الله تعالى الخاطر فى قلب الرسول أو النبى أن «افعل كذا» ؛ فيفعل .

وحين ننظر إلى حضارة مصر القديمة ، نجد كلَّ علومها وفنونها فى التحنيط والألوان والنَّحت ، كانت من اختصاص الكهنة الذين يُمثِّلون السلطة الدينية ، ولم يكتب هؤلاء الكهنة أسرار تلك العلوم ، فلم يستطع أحد من المعاصرين أن يتعرف عليها .

وهكذا نجد أن كل أمر فى أصوله ؛ مصدره السماء .

وفى قصة نوح عليه السلام نجد الحق سبحانه يقول :

---

(١) النبراس : المصباح ، أو الشىء المنير . [المعجم الوسيط] بتصرف .

(٢) اللَّبوس : ما يُلبس . والمراد بها هنا : الدروع التى تلبس فى الحرب . [القاموس القويم] .

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ[1] بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) ﴾

ومعنى «بأعيننا» هو بحفظنا وبرعايتنا. وكلمة «بأعيننا» تفيد شمول الحفظ وكمال الرعاية.

ألم يقل الحق سبحانه فى مسألة تخصُّ رسول الله محمد ﷺ ؟

﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا[2] .. (٤٨) ﴾ [الطور]

وكذلك قال سبحانه فى قصة سيدنا موسى عليه السلام:

﴿ .. وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه]

وأنقذ الحق سبحانه موسى عليه السلام من الفرعون الذى كان يقتل أطفال بنى إسرائيل، وألقى الله تعالى المحبة لموسى فى قلب زوجة الفرعون، وقال سبحانه:

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي .. (٣٩) ﴾ [طه]

لأن موسى عليه السلام حين كان طفلاً رضيعاً قد ألقىَ فى اليَمِّ[3]،

(١) الفُلك: السفينة. ولفظة الفلك تقع للمذكر والمؤنث والمفرد والجمع. قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ﴾ [الشعراء] جعله مفرداً مذكراً. وقال تعالى: ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ .. (١٤) ﴾ [النحل] جعل الفلك جمعاً ووصفه بقوله: «مواخر» أى: السفن.

(٢) أى: اصبرْ على أذاهم، ولا تبالهم، فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا، والله يعصمك من الناس. تفسير ابن كثير (٤/ ٢٤٥).

(٣) اليم: مجتمع الماء الكثير، سواء أكان ماء عذباً أو مالحاً، وقد ورد هذان المعنيان فى القرآن:
- قال تعالى: ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩) ﴾ [طه] فهو هنا الماء العذب. والمقصود نيل مصر.
- وقال تعالى: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. (١٣٦) ﴾ [الأعراف] فهو هنا الماء المالح والمقصود خليج السويس امتداد البحر الأحمر.

والتقطه رجال الفرعون ، لكن زوجة الفرعون قالت لزوجها طالبة لموسى الحياة :

﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ [1] .. (٩) ﴾ [القصص]

ونحن نجد أن عَدُوَّ موسى وقومه ، يلتقط موسى ليعيش فى كنفه ورعايته ، وكأن الله سبحانه يقول لهم : سأجعلكم تُرَبُّون مَنْ يتولّى قهركم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا .. (٣٧) ﴾ [هود]

أى : إنك إن توقَّفتَ لأية عقبة ، فسوف نُلهمك بما تُواجه به تلك العقبة .

وحين صنع نوح عليه السلام الفُلْك احتاج لألواح خشبية ، ولا بد أن تتماسك تلك الألواح ، ولم تكن المسامير قد اختُرِعتْ بَعْدُ ، فأوحى له الله تعالى أن يربط الألواح بالحبال المجدولة ، وقد فعل هذا أحد مكتشفى أمريكا فى العصر الحديث ، حين صنع سفينة من نبات البَرْدِى وربطها بالحبال المجدولة القوية .

وقال الحق سبحانه فى طريقة صنع سفينة نوح عليه السلام :

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ [2] (١٣) ﴾ [القمر]

---

(١) قرة عين لى ولك : أى : مبعث سرور لى ولك . [القاموس القويم] .

(٢) دسر الدسار فى الشىء : دفعه فيه بقوة . والدسار : المسمار أو حبل من ليف تُشدُّ به ألواح السفينة وجمعه (دُسُر) .

قال تعالى : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) ﴾ [القمر] . كناية عن موصوف هو السفينة . وقال مجاهد : الدسر أضلاع السفينة . وقال عكرمة والحسن : هو صدرها الذى يضرب به الموج . وقال الضحاك : الدسر طرفاها وأصلها . ذكره ابن كثير فى التفسير (٤/ ٢٦٤) .

أى : أن نوحاً عليه السلام قد أحضر ألواحاً من الخشب وربطها بحبال مجدولة ، وأَحْكَمَ الرَّبط بقدر مقتدر بما لا يسمح بتسرب الماء إلى داخل السفينة.

مثلما تصنع البراميل الخشبية فى عصرنا ، حيث يصنعها الصانع من قطع خشبية مستطيلة ، ويرتّبها ثم يُحْكم رَبْطَها بإطار قوىٍّ ، وحين يوضع فيها أى سائل ، فالخشب يتشرَّب من هذا السائل ويتمدَّد ليسدَّ المسَام ، فلا ينضح السائل من البرميل ؛ لأن الخشب هو المادة الوحيدة التى تتمدَّد بالبرودة على العكس من كل المواد التى تتمدّد بالحرارة.

ولذلك نجد النَّجَّار الحاذق [1] فى صنعته هو مَنْ يصنع الأثاث أو الأبواب أو الشبابيك فى الفصول الرتيبة [2] ؛ لأنه إن صنعها فى الصيف ، سنجد الخشب وهو منكمش ، فإذا ما جاء الشتاء تمدَّد ذلك الخشب وسبَّب عدم إحكام إغلاق الأبواب والنوافذ ، وكذلك إن صنعها فى الشتاء والخشب متمدِّد سيأتى الصيف وتنكمش الأبواب ، وتكون لها متاعبها ، فلا يسهل ضبط إغلاق الأبواب أو ضبط أى صندوق أو شبَّاك بإحكام.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ [3] ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود]

أى : لا تحدِّثنى فى أمر المغفرة لمن ظلموا أنفسهم بالكفر ، وهم مَن ارتكبوا الظلم العظيم ، وهو الكفر فى القمة العقدية ، وهى الإيمان بالله تعالى واحداً أحداً لا شريك له ؛ لذلك استحقوا العقاب ، وهو الإغراق.

---

(١) الحاذق : الماهر فى عمله. حذق الشىء : مهر فيه . [انظر اللسان] .
(٢) الرتيبة : الثابتة التى لا توصف ببرد أو حرٍّ .
(٣) الغرق هو أن يغمر الماء الشخص حتى يموت ، يقول الحق : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس] أن تمكن منه ، وغرق كفرح فهو غرق وغارق وغريق . وجمع الأخير غرقَى ، واسم المفعول منه مُغرق ، قال تعالى : ﴿ .. فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [هود] (القاموس القويم صـ ٥١ جـ ٢).

وهكذا عَلِمَ نوح عليه السلام أنَّ صُنْع السفينة مرتبط بلون العقاب الذى سيقع على مَنْ كفروا برسالته ، فهو ومَنْ آمنوا معه سوف ينجون ، أما مَنْ كفر فلسوف يغرق .

ويبيِّن الحق سبحانه وتعالى ذلك حين يقول :

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ(١) مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا(٢) مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

وكان السادة والكبراء من ملأ نوح يمرون عليه وهو يصنع السفينة يسخرون منه ، بما يعنى : ها هو بعد أن ادَّعى النبوة يتحوَّل إلى نجَّار ، ثم يتساءلون : كيف تصل هذه السفينة من «الموصل» إلى البحر ؟

ولم يكونوا قد علموا ما علمه نوح عليه السلام من أن الماء هو الذى سوف يأتى ليحمل السفينة .

ونحن نلحظ فى قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [هود]

تنفيذ الأمر الذى صدر من الله سبحانه وتعالى إلى نوح عليه السلام حين قال سبحانه :

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود]

---

(١) مَلأٌ : جماعة منهم .

(٢) سخر منه وبه من باب فرح سَخَرا وسَخْرا وسُخْرا وسُخْرية وسُخْرِيّه : هزئ به . قال تعالى : ﴿ .. قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [هود] [القاموس القويم]

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ[1] وَيَحِلُّ[2] عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

ونلحظ في قول الحق سبحانه: ﴿فَسَوْفَ﴾ ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أن الفعل الذى يعلمه نوح عليه السلام وهو أمر الإغراق سيحدث مستقبلاً ؛ لأن أى حدث - كما نعلم - له أكثر من صورة ، فإن جاء الكلام عن الحدث بعد وقوعه ؛ كان الفعل ماضياً ، وإن جاء الكلام وقت وقوع الحدث كان الفعل مضارعاً.

وإن جاء الكلام عن حدث لم يأت زمنه فالأمر يقتضى أن نسبق الكلام عن الحدث بحرف «السين» كأن نقول: «سيعلمون» وهذا عن الاستقبال القريب ، أما عن الاستقبال البعيد فتأتى كلمة «سوف».

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام قضى العديد من السنين وهو يصنع السفينة[3] ؛ ولذلك جاء بـ «سوف» لتدل على أوسع مَدًى زمنيٍّ.

وما الذى سوف يعلمونه؟ إنه العذاب ، أيأتى لنوح ومن معه أم يأتى للذين كفروا من ملأ نوح ؟

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح عليه السلام:

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [هود]

---

(١) خزى يخزى: هان وافتضح وخجل. وأخزاه فلان ويخزيه: أهانه وفضحه. قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ .. ﴿١٩٢﴾ ﴾ [آل عمران].

(٢) يحل: ينزل عليهم. وقال تعالى: ﴿ .. وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ ﴾ [طه] [القاموس القويم].

(٣) قال زيد بن أسلم: مكث نوح عليه السلام مائة سنة يغرس الشجر ويقطعها وييبسها ، ومائة سنة يعملها. ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٤٩).

وفى هذا القول ما يؤكِّد أن نوحاً عليه السلام يعلم أن العذاب سوف يأتيهم ؛ لأنهم كفروا وسَخروا وقالوا:

﴿ .. فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) ﴾ [هود]

وقول الحق سبحانه:

﴿ .. وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) ﴾ [هود]

نجد فيه كلمة ﴿يَحِلُّ﴾ وهى ضدُّ الرحيل ، وتفيد النزول من أعلى إلى مكان الإقامة ، فَحَلَّ بالمكان ، أى : نزلَ ليقيم به ، والضِّدُّ هو الرحيل أو الترحال .

وقول الحق سبحانه : ﴿مُّقِيمٌ﴾ يعنى أن العذاب الذى سيحِلُّ بهم عذاب دائم[1] .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ[2] قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ[3] إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) ﴾

---

(١) جاء فى تفسير الآية عند القرطبى (٤/ ٣٣٥١) ما يفيد أن هنا نوعين من العذاب :
- الأول : ﴿عذابٌ يُخزِيه﴾ وهو فى الدنيا .
- الثانى : ﴿عذابٌ مُقيمٌ﴾ وهو عذاب الآخرة .

(٢) التنور : مكان تفجر الماء . والكانون الذى يخبز فيه . قال تعالى : ﴿وفار التَّنُورُ .. (٤٠)﴾ [هود] أى : تفجرت الأرض بماء كثير ، أو تفجرت بماء يشبه فوران النار فى التنور . والتنور : مجتمع ماء الوادى . وكل ذلك يدل على كثرة الماء ، وعلى قوة اندفاعه . [القاموس القويم] .

(٣) أهَلَ من باب فرح وضرب ونصر أهلاً وأهولاً : تزوج ، وأهل المكان عَمر بأهله . والأهل الأقارب والعشيرة والزوجة ، وأهل الدار أصحابها ، وأهل النبى أتباعه ، وأهل الكتاب هم أصحاب الديانات السماوية ، قال تعالى : ﴿ .. يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) ﴾ [المائدة] [القاموس القويم باختصار] .

وكلمة ﴿حَتَّى﴾ تدل على الغاية وكلمة ﴿أَمْرُنَا﴾ تدل على الطوفان ، ثم الأمر من الحق سبحانه بأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، ومَنْ آمن معه وكانوا قلَّة قليلة .

إذن : ففى قصة نوح عليه السلام أكثر من مرحلة ، أمر من الله تعالى بقوله :

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ .. (٣٧)﴾ [هود]

وعمل من نوح عليه السلام بأن يصنع ، وقد استغرق هذا الفعل وقتاً طويلاً من نوح عليه السلام إلى أن جاء أمر الطوفان الذى يدل عليه قول الحق سبحانه :

﴿وَفَارَ التَّنُّورُ .. (٤٠)﴾ [هود]

ومعنى كلمة ﴿فَارَ﴾ أى : أن الماء قد وصل إلى درجة الغليان .

فالماء يحتوى على هواء بدليل أن السمك يتنفس من الماء ، وحين نغلى الماء نرى فقاقيع الهواء وهى تخرج من الماء ، ثم يثقل الماء إلى أن تشتد سخونة الغليان ، فيفور الماء منثوراً خارج إناء الغليان .

و«التنور» هو المكان الذى تتم فيه عملية الخبز ، وخروج الماء من التنور هو علامة مميزة يعلمها نوح عليه السلام ليحمل من يريد نجاتهم ، من المؤمنين ، ومن متاع الدنيا كله .

وكانت العلامة هى خروج الماء من غير مَظَانِّه وهو التنور .

واختلف العلماء [1] فى تفسير كلمة «التنور» فمنهم من قال : إن التنور هو

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره هذه الاختلافات على سبعة أقوال، فلتراجع هناك (١/ ٣٣٥١ ، ٣٣٥٢) ، ثم قال : «قال النحاس : هذه الأقوال ليست بمتناقضة؛ وهى تجتمع فى أن ذلك كان علامة» أهـ بتصرف . أما ابن كثير فقد رجّح قول ابن عباس أن التنور هو وجه الأرض، أى : صارت الأرض عيوناً تفور حتى فار الماء من التنانير التى هى مكان النار، صارت تفور ماء . قال ابن كثير : «هذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف» وذكر باقى الأقوال ولكنه وصفها بالغرابة . [تفسير ابن كثير ٢/ ٤٤٥] .

المكان الذى كان آدم عليه السلام يخبز فيه ، أو هو المكان الذى كانت تعمل فيه حواء ، أو هو بيت نوح ، أو هو بيت سيدة عجوز .

وكل تلك التفسيرات لا تفيد ولا تضرُّ ، المهم أن فوران التنور كان علامة بين نوح عليه السلام وربه ، وأنه إذا ما فار التنور فعَلَى نوح أن يحمل من كل زوجين اثنين .

وقول الحق سبحانه :

﴿ احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [هود]

تعنى : أن يحمل من كل الكائنات ، وتدل على ذلك كلمة ﴿ كُلٍّ ﴾ المنونة - وتفيد التعميم -أى : احمل فى السفينة من كل شىء ، تطلبه حياة الناجين من جميع أصناف النباتات والحيوانات ،حتى الخنزير كان ضمن ما حمله نوح عليه السلام .

والذين يقولون إن تحريم الخنزير جاء ؛ لأن نوحاً عليه السلام لم يحمله معه ، لم يفطنوا إلى أهمية الخنزير كحيوان يأكل القاذورات وينظف الأرض منها ؛ لأن كل كائن له مهمة ، وليست مهمة الكائنات فقط أن يأكلها الإنسان .

وكلمة :

﴿ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [هود]

تدل على أن كلمة «زَوْجٍ»[1] هى مفرد ؛ بدليل قول الحق سبحانه :

---

(١) الزوج : كل واحد مع آخر من جنسه مع اختلاف المهمة لأن فى اختلاف المهمة تكامل الغاية ، يطلق على الذكر والأنثى ؛ فالرجل زوج لامرأة ، والمرأة زوج لرجل . والزوج فى الحساب خلاف الفرد ، وهو كل ما ينقسم قسمين متساويين .

والزوج : الشكل أو الصنف يكون له نظير أو نقيض كالرطب واليابس والذكر والأنثى . قال تعالى : ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [هود] أى : احمل فى السفينة ذكراً وأنثى من كل نوع . وقال تعالى : ﴿ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [ص] . أى : أصناف متزاوجة ذكورة وأنوثة ، أو متناقضة كل شىء وضده . [القاموس القويم] . بتصرف

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ..(١)﴾ [النساء]

إذن : كلمة «زَوْجٍ» تعنى مفرد معه مثله ، كزوج من الأحذية مثلاً .

أقول ذلك حتى لا نأخذ كلمة «الزوج» على أنها اثنان ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ..(١٤٤)﴾ [الأنعام]

وحين نجمع العدد سنجده ثمانية ، ولو كانت كلمة «زوج» تطلق على الاثنين لصار العدد فى تلك الآية الكريمة ستة عشر .

ويوضّح القرآن الكريم أن كلمة «زوج» مفرد فى قول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً (١) مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى (٢) (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً (٣) فَخَلَقَ فَسَوَّى (٤) (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى (٣٩)﴾ [القيامة]

إذن : فالذكر زوج ، والأنثى زوج أيضاً .

وواصل نوح عليه السلام تنفيذ أمر الحق سبحانه :

---

(١) نطف الماء : سال وقطر . والنطفة : الماء الصافى ، وتطلق فى القرآن على ماء الرجل أو المرأة ، الذى يُخلق منه الولد . وقال تعالى : ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤)﴾ [النحل] .

(٢) منى يمنى : يُصبُّ فى الرحم . [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف] .

(٣) علقة : الدم الجامد الغليظ الذى يَعْلَق بما يمسه . وجمعها : علق . قال تعالى : ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ..(٥)﴾ [الحج] ، وقال تعالى : ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون] ، وقال تعالى : ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢)﴾ [العلق] . [القاموس القويم] .

(٤) فسوى : فعدَّله وكمَّله ونفخ فيه الروح . [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف] .

﴿ .. احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) ﴾ [هود]

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يستبقى الحياة بنجاة كل ما تحتاجه الحياة بالسفينة ، ويقال: إنهم عاشوا فى تلك السفينة عامين (١) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا (٢) وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) ﴾

هذه هى المرحلة الأخيرة فى قصة السفينة ، وبدأت القصة بأمر من الله سبحانه لنوح عليه السلام أن اصنع الفلك ، ثم تمهيد من نوح لقومه ، ثم ظل يصنع الفلك حتى جاءت إشارة البدء بعلامة :

﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ .. (٤٠) ﴾ [هود]

وحَمَلَ نوح عليه السلام فى الفُلْك - بأمر من الله تعالى - من كل شىء زوجين اثنين ، وأهله ومَنْ آمن معه .

وقال نوح عليه السلام لمن آمن :

﴿ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. (٤١) ﴾ [هود]

---

(١) قال عكرمة : ركب نوح عليه السلام فى الفلك لعشر خلون من رجب ، واستوت على الجودى لعشر خلون من المحرم . فذلك ستة أشهر . وذكر الطبرى عن ابن إسحاق ما يقتضى أنه أقام على الماء نحو السنة . قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٥٤) وذكر ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٤٧) عن ابن عباس أنهم مكثوا فى السفينة مائة وخمسين يوماً ، أى : حوالى خمسة أشهر . فالله أعلم .

(٢) المجرى (بفتح الراء وتُمال نحو الكسرة) : مصدر ميمى بمعنى الجرى . قال تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. (٤١) ﴾ [هود] أى : جَرْيُها وإرساؤها ببركة اسم الله وبعنايته ورعايته . [القاموس القويم] .

وهذا القول منسوب لنوح عليه السلام ؛ لأنه أضاف :

﴿ .. إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [هود]

والركوب يقتضى أن يكون الراكب على المركوب ، ومستعلٍ عليه.

والاستعلاء يقتضى أن يكون الشيء المُستعلَى عليه في خدمة المُستعلِى ، فكأن تسخير الله سبحانه للسفينة إنما جاء ليخدم المستعلِى.

ولكن الله تعالى يقول هنا :

﴿ ارْكَبُوا فِيهَا .. ﴿٤١﴾ ﴾ [هود]

ولم يقل : «اركبوا عليها».

قال الحق سبحانه وتعالى ذلك ؛ ليعطينا لقطة عن طريقة صنع السفينة ، فقد صنعها[1] نوح عليه السلام بوحى من الله تعالى على أفضل نظام في البواخر ، ولم يصنعها بطريقة بدائية ، فهم - إذن - لم يركبوها على سطحها ، بل تم بناؤها بما يتيح لهم السكن فيها ، خصوصاً وأن تلك السفينة تحمل وحوشاً وهواماً وحيوانات بجانب البشر ، لذلك كان لا بد من بنائها على هيئة طبقات وأدوار.

وقول الحق سبحانه :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. ﴿٤١﴾ ﴾ [هود]

يُبيِّن لنا أنها قد صُنعت لتُنجى من الغرق ؛ لذلك لا بد أن تسير بالراكبين فيها إلى مكان لا يصله الماء ، ولا بد أن يكون هذا المكان عالياً ؛ ليتيح

---

(١) الصنع : معناه الإحداث والإنشاء ، ويكون بقصد وإرادة وتدبير ، ويطلق على الحرفة صناعة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [طه] وقال تعالى : ﴿ .. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر] ، وتأتى عقب التربية والتعليم بحراستى وعنايتى كما في قوله تعالى : ﴿ .. وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه] وتطلق على الأبنية العالية والقصور المتينة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الشعراء] [القاموس القويم بتصرف] .

الرُّسُوَّ ، كما أتاح الفيضان عملية الجريان.

وهكذا كان جريانها باسم الله ، ورُسُوُّها بإذنه سبحانه.

وقول نوح عليه السلام:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. (٤١) ﴾ [هود]

يعلِّمنا أن جريانها إنما يتمُّ بمشيئة الله تعالى وأنهم يركبون فيها ، لا لمكانتهم الشخصية ، ولكن لإيمانهم بالله تعالى.

ومثال ذلك من حياتنا - ولله المثل الأعلى - : نجد القاضي يقول مفتتحاً الحكم: «باسم الدستور والقانون» أي: أنه لا يحكم بذاته كقاضٍ ، لكنه يحكم باسم الدستور والقانون.

ونوح عليه السلام يقول:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. (٤١) ﴾ [هود]

لأن السفينة لله أمر ، ولرسوله صناعة.

ولذلك يقال: «كل شيء لا يبدأ باسم الله فهو أبْتر»[(١)].

لأنك حين تُقبل على فعل شيء ، فالأفعال أو الأحداث تحتاج إلى طاقات متعددة ، فإن كان الفعل عضليًا ، فهو يحتاج لقوة ، وإن كان الفعل عقليًا فهو يحتاج لفكر ورويَّة وأناة ، وإن كان فعلاً فيه مواجهة لأهل الجاه فهو يحتاج إلى شجاعة ، وإن كان من أجل تصفية نفوس فهو يحتاج إلى الحِلْم.

إذن: فاحتياجات الأحداث كثيرة ومختلفة ، ومن أجل أن تحصل على القوة فقد تقول: «باسم القوي القادر» ولكي تحصل على علم ؛ تقول: «باسم العليم» ، وتريد الغنى ؛ فتقول: «باسم الغنيّ» وحين تحتاج إلى الحلم تقول: «باسم الحليم» ، وعندما تحتاج إلى الشجاعة ؛ تقول: «باسم القهار».

---

(١) أبتر: أي مقطوع البركة ، لا خير فيه.